كاد حلمي ينتهي

إبراهيم الخطيب

رغم أن الأيام أسقطت الكثير من التفاصيل، فلا يمكن أن أنسى تلك الأيام التي عشتها داخل غرفة الصف، فما زلت أتذكر ملامح تلك المدرسة التي أعطتني بقدر ما أحببتها، والتي قضيت طفولتي وصباي متنقلاً بين صفوفها. كان لتلك المدرسة طريقة واحدة في الحب اكتشفت بعدها أنها طريقة مشتركة لكل من درس فيها. كانت مدرسة عادية، ولكن بتفاصيل غير عادية، بناية قديمة بناها الأردنيون بعد مجزرة قبيا مباشرة العام 1953، وأشجار السرو التي تحيطها من كل الجهات، وفي وسطها ملعب كرة القدم الذي أحببته كأنه جزء مني.

ورغم تلك السنوات التي مرت على دراستي في المرحلة الابتدائية، فإني ما زلت أتذكر المعلمين وضجيج صراخهم أثناء الطابور الصباحي وفي ردهات الممرات أثناء المناوبة، اعتقدت حينها أن من شروط التوظيف، إضافة إلى الشهادة الجامعية، التزام المعلم بلباس تقليدي موحد يتمثل في بنطلون قماشي أسود أو بني، وقميص أبيض وأحياناً مزركش تتوسطه أزرار كثيرة، وعلى الجانب الأيسر من القميص وجود جيب صمم خصيصاً لتعليق أقلام الحبر الملونة، وربطة عنق تكاد تسبب الاختناق في لهيب الصيف الحار.

لم أكن طالباً مشاغباً من هواة الجلوس في المقعد الأخير، و لم أتسابق في بداية العام الدراسي مع زملائي لأحجز مقعداً من المقاعد الأمامية التي تثير انتباه المعلم، و لم أتذكر أني تعرضت للضرب أو العقاب في تلك المرحلة إلا مرة واحدة، وذلك لسوء السلوك. كنت ملتزماً بحل واجباتي البيتية، وأدرس أولاً بأول، ربما كان ذلك خوفاً من العقاب، لأن العقاب ليس له حدود، فمعلم كان يجبر الطلاب المقصرين على أكل أوراق

الشجر، وآخر كان يفرك القلم بين أصابع الطالب حتى يكاد يغمى عليه كما في غرف التحقيق. ولتفوقي وتميزي الثقافي، حصلت على المركز الأول في المسابقة الثقافية الرمضانية على مستوى المدرسة، وهي عبارة عن مجموعة من الكتب، كان أحدها كتاب **معالم على الطريق**.

وبعد ترفعي إلى المرحلة الإعدادية في المدرسة نفسها التي سبق أن دخلتها منذ سنوات مع صوت الجرس ذاته، والزملاء أنفسهم، وصراخ المعلمين أنفسهم، أتذكر اليوم الذي تحول فيه كرهي لحصة الرياضيات إلى الحصة المفضلة عندي، وذلك عندما دخل معلم الرياضيات إلى غرفة الصف وبيديه أوراق امتحان الشهرين ودفتر العلامات، وحينها كنت أعرف نتيجتي وهي الرسوب. وعندما بدأ المعلم بمناداة الأسماء طالباً طالباً وتسليمه ورقة امتحانه بعد رصد علامته، بدأ توتري يزداد شيئاً فشيئاً حتى أتى دوري. وعندما وصلت طاولة المعلم، إذ به ينظر إلى ورقة الامتحان تارة، وإلي تارة أخرى باستغراب وتعجب، فإذا به يفاجئني ويقول لي: أكيد ... أكيد أني أخطأت في تصحيح ورقة امتحانك، وبتلقائية يعدل العلامة ويرصد العلامة المزيفة في دفتر العلامات. كنت متيقناً أنه يعرف أنه لم يخطأ، بل لم يرد إحراجي بين زملائي لأني كنت حسب اعتقاده من الطلاب الشطار. أراد حينها رفع معنوياتي وتحفيزي، وكان له ما أراد. فمنذ تلك اللحظة توطدت علاقتي بالرياضيات، ليس لأنها أبهرتني، بل لأن معلمها هو من أبهرني.

ومن القصص التي غيرت انطباعي عن المعلم التقليدي في تلك المرحلة، المعلم الجديد الذي دخل علينا في الصف الثامن وفأجأنا بلباسه غير الذي اعتدنا عليه. كان على ما أتذكر يلبس بنطلون جينز وبلوزة حمراء، شاب في مقتبل العمر لم يكمل واحداً وعشرين عاماً. لم يكن حاملاً بيده عصا، ولم يكن صوته عالياً، ولم يربي شارباً غليظاً ليخيفنا به. في تلك اللحظة، تم تحطيم ما تختزله ذاكرتي وما تحتفظ به عن المعلم النمطي بلباسه وصراخه وعصاه، حدثنا كما نريد، أحببته كثيراً، وتمنيت آنذاك أن أصبح مثله عندما أكبر خارج المألوف، بعيداً عن النمطية التي لم ترق لي يوماً ما.

ومرة أخرى ينقلني القدر أنا وزملائي من مدرستنا الأولى إلى مدرسة نعلين الثانوية، ليضعني أمام ساحة أخرى وأصدقاء جدد وتجارب جديدة، تاركاً خلفي ذكرياتي وأيام طفولتي، إلا أنني وزملائي تخلصنا من غرفة الصف العاشر المقابلة لغرفة المدير التي كانت لنا سجناً وعقاباً لنا، حيث حدت من حريتنا ومشاغبتنا، وأصبحنا فيها طلاباً مهذبين غير مزعجين.

وأثناء دراستي في مدرسة نعلين الثانوية، تبدلت اهتماماتي شيئاً ما من الدراسة إلى السياسة؛ أي من مشاغبة إلى مشاغبة أخرى بطريقة مختلفة، حيث لم يمض على التحاقي بالمدرسة الجديدة سوى شهرين، حيث تم اعتقالي واثنين من زملائي في المدرسة. حينها تبدد الأمل في إكمال دراستي، وكاد الحلم ينتهي على أثر ذلك الاعتقال، حيث حكمت بالسجن لمدة سنة ونصف. وأكثر ما كان يثير تفكيري ويشغل بالي أثناء وجودي في السجن ضياع السنة الدراسية، حيث كنت أحلم –كما غيري– بإكمال دراستي الجامعية.

لذا، رأيت أن ما أكتبه عن سجني قد يضيف بعض التفاصيل التي قد لا يكتمل المشهد تماماً إلا بها، فعلى الرغم من تلك التجربة وكثافتها ودهشتها وكأنها أطول مما كانت، فإنها لم تدم بالنسبة لي سوى ثمانية عشر شهراً، وبعد خروجي من السجن انتابتني الحيرة وتصارع الأفكار في إكمال دراستي

الثانوية، حيث رفضت العودة إلى المدرسة ذاتها، والدراسة مع طلاب يصغرونني بعامين، وبعد نقاش طويل ومفاوضات شائكة، وافق أبي على إكمال دراستي في مدرسة خاصة في مدينة رام الله متحملاً تكاليف باهظة.

وهكذا عدت إلى المدرسة بعدما تخلفت لعامين دراسيين، لأجد الكتاب نفسه واللوح نفسه والطباشير نفسها، ولكن هذه المرة بمسؤولية أكبر.

بعد نجاحي في الثانوية العامة، التحقت بجامعة الخليل كلية الآداب قسم اللغة العربية، هذا التخصص الذي تركته بعد عام لأنه لم يرق لي، ولم يلامسني لا من بعيد أو قريب، وشعوري حينها أني ضائع في صحراء النحو والصرف، وغارقا في بحور العروض. فكانت كلية التمويل والإدارة وجهتي الجديدة، غارقاً في أحلام الانتعاش الاقتصادي وتوفر فرص العمل غير المحدودة في المجالات كافة، معتقداً أننا سنتحول إلى سنغافورة الشرق الأوسط كما روج مُوقِّعي أوسلو لها.

عندها التقيت بأساتذة مخلصين اعتز بهم، وأمتن بالعرفان والجميل اللامحدود، منهم عميد الكلية د. سمير أبو زنيد، ود. نبيل كوكالي أستاذ الإحصاء ومناهج البحث العلمي الذي ساعدني ووقف بجانبي طيلة فترة دراستي الجامعية. وبالعكس تماماً، هناك أساتذة آخرون تكونت لهم صورة سيئة في قلبي ولا تزال تعيش بداخلي، لأني كنت أكره الواسطة والمحاباة التي رأيتها من قبل أساتذة لبعض الطلاب، فسحقا لذلك الدكتور المتبجح الذي بدل أن يمنحني الثقة والدعم والمساندة، تربص بي وما زلت أجهل السبب، ربما لاختلاف أفكاري مع أفكاره، وكثرة مناقشتي وجدلي لحديثه، وبدأ بمعاداتي دون سابق إنذار. ما زلت أتذكر لجنة التحقيق التي شكلت من أساتذة محترمين في كلية التمويل والإدارة بسبب الشكوى التي تقدم بها ذاك الدكتور ويدعي فيها أني شتمته على الملأ داخل الكافتيريا، مطالباً بفصلي من الجامعة، ولكن محاولته باءت بالفشل والحمد لله.

بعد تخرجي من الجامعة حلمت بعمل في الظل، يمكن أن أقوم فيه بشيء من التغيير دون ضجيج أو متاعب، ولكن بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية، وتقلص فرص العمل نتيجة اندلا ع انتفاضة الأقصى المباركة، اضطررت للذهاب والعمل في مجال البناء داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة العام 1948، حتى كدت أنسى ما تعلمته، وشهادتي التي أحملها، وبعد مرور ما يقارب خمس سنوات على تخرجي من الجامعة، وتضايق زوجتي لتغيبي المستمر ومبيتي خارج البيت لأسابيع متواصلة، وبخاصة بعد مجيء ابننا الأول رامز، حيث أقنعتني بالتقدم لوظيفة معلم وخاصة بعد استحداث مادة الإدارة والاقتصاد في المدارس، فعند رغبتها قمت بالتسجيل والتقدم لامتحان القبول وأنا غير مقنع بذلك. وأثناء عملي، فإذا باتصال من مديرية التربية والتعليم يبلغونني بأنه تم تعييني مناصفة بين مدرستي اتحاد صفا الثانوية وخربثا بني حارث الثانوية، فارتبكت و لم أعرف ماذا سأفعل، هل أقبل أم أرفض، وبدأت الأسئلة تحاصرني من كل جانب، كيف سأدرس وأنا لم آخذ مادة تربوية طيلة دراستي، وأي الصفوف سأدرس، وبأي طريقة، وكيف سأقف أمام الطلاب وأشرح لهم الدرس، وبخاصة بعد معرفتي أن مدرسة خربثا مختلطة.

وبالفعل غادرت العمل وبدأت في تلك الليلة بزيارات متتالية لمعارفي من المعلمين، و لم أترك معلماً أعرفه إلا وأخذت منه النصائح. وفي اليوم التالي ذهبت إلى المدرسة، فالتقيت بالمدير، فقال لي: أهلاً بك إبراهيم ... شو أخبارك ... سلم وتسلقت نظراته طوابق خوفي، وخلال وقوفي في الساحة أثناء الطابور الصباحي كنت أتابع في نظرة غائبة خطوات المدير المتجهة نحو الميكروفون ليتلو التعليمات الانضباطية التي يحفظها الطلاب عن ظهر قلب، والتي قليلاً من الطلاب من يلتزم بها. تعرفت على المدرسة وعلى زملائي الجدد، فبدأوا بتلاوة النصائح علي، أحدهم يقول كن شديداً وحاسماً من الحصة الأولى، ولا تترك الحبل على غاربه، وآخر يقول فور دخولك الصف قم بضرب أحدهم ليتعلم باقي الطلاب ويكون عبرة لهم، فشعرت من اليوم الأول بأني في مكان لا وجود للضعفاء فيه.

بالنسبة لتجربتي الشخصية كان شعوري بالسعادة أن أكون محاطاً بأشخاص إيجابيين مهتمين داعمين محفزين، أشخاص يؤمنون بك ويشجعونك على الوصول إلى بر الأمان وتجاوز المصاعب التي قد تعترض عملك، ويفرحون لنجاحاتك، وينسونك كل الهموم ومتاعب الطلاب وشغبهم، ينسونك وزن الأوراق التي بحاجة إلى مراجعة وتصحيح، ... تعب الأيام وإرهاصاتها. إن مهنة التعليم بطبيعتها تلقي عليك كمعلم بالكثير من المسؤولية الاجتماعية والتربوية اتجاه أبنائك الطلاب ومجتمعك.

إن أجمل اللحظات هي تلك التي أقضيها مع طلابي نتبادل الأحاديث، أتعرف عليهم، اقترب منهم، أساعدهم وأعلمهم وأتعلم منهم. فعندما انتقلت إلى مدرسة بدرس الثانوية تم تكليفي بتدريس التربية الإسلامية للصف الخامس، وأثناء تلك الحصة قام الطالب عدنان وسألني سؤالاً لم أعرف إجابته، وقلت له عندما يأتي معلم التربية الإسلامية أسأله هذا السؤال، ناسياً أني معلم التربية الإسلامية، فجلس الطالب دون أن يعلق، ولكن بعد لحظات وقف مجدداً وقاطعني وقال: يا أستاذ أنت معلم التربية الإسلامية، فابتسمت وضحكت حتى آخر الحصة.

كان آخر أيام الامتحانات النهائية للفصل الدراسي الأول من العام 2013. رن الجرس وبدأ الاختبار، ووزعت الأوراق على الطلاب، يطلب أحد الطلاب توضيحاً لسؤال، وآخر يتأكد من عدد الأسئلة، وثالث يطلب قلماً، وهكذا مرت ثلاثون دقيقة، وأثناء متابعتي ومراقبتي وقع نظري على الطالب سمير أحمد الذي عرف ببساطته وشخصيته المرحة المحببة لكل المعلمين، يطلب مني المغادرة وتسليم الامتحان، وكان عجولاً في ذلك، لم أعرف السبب وقتها، إلا عندما سمعت خبر استشهاده بعد ساعة فعرفت سبب عجلته، كان يريد مقاومة المحتل عند جدار الفصل العنصري القريب من أسوار المدرسة، فتأثرت وبكيت و لم أصحح ورقة امتحانه في الإدارة والاقتصاد.

عندما أجلس مع المعلمين، اسمع الكلام نفسه يومياً عن الوضع المعيشي، وعن هموم الحياة اليومية، فبدأت أتساءل: هل يا ترى يعقل أن يكون راتب المعلم ما يقارب 2500 شيكل، على الرغم من علم الجميع أن هذا المبلغ لن يكفيه سوى لأيام قليلة من الشهر، ولا يتناسب مع الطريقة التي يحيا بها؟ ألا يؤكد ذلك أن هناك مصادر أخرى لدخله يعوض بها هذا الخلل الفادح بين دخله ونفقاته. ونتيجة لكل ذلك، قام في فلسطين، بجانب مهنة التعليم العلني الحكومي، تعليم آخر خصوصي ساهم إلى حد بعيد في تشويه أخلاقيات مهنة التعليم.

مدرستا نعلين وخربثا بني حارث الثانويتان